



+ آباؤنا القديسون

القديس يوحنا الدمشقي

تعيّد الكنيسة المقدسة في الرابع من كانون الأول لتذكّار أبينا البار يوحنا الدمشقي اللاهوتي. ولد منصور بن سرجون - وهو إسم القديس يوحنا الأصلي - حوالي سنة ٦٧٥ في دمشق عاصمة الأمويين آنذاك، وقد يكون من قبيلة بني تغلب العربية. كان والده يعمل في إدارة أموال الخلفاء الأمويين على عهد معاوية بن أبي سفيان وبقي في وظيفته أكثر من ثلاثين عاماً كان خلالها زعيم المسيحيين في دمشق.

عُرفت عائلة منصور - يوحنا - بحبها للعلم والثقافة، فأوكل والده أمر تعليمه مع شقيقه بالتبني قزما إلى راهب صقلّي يدعى قزما المنشئ (نعيّد له في ١٢ تشرين الأول) كان قد اشتراه والده من القراصنة ثم حرّره وعهد إليه بتعليم أولاده. إكتسب يوحنا وأخوه من هذا الراهب الكثير من الفضائل، وأتقن يوحنا اللغة اليونانية، لغة الطبقة الراقية من كبار المتعلّمين. وبسبب صداقته مع يزيد بن معاوية تذوّق الشعر العربي وتعرف إلى الديانة الإسلامية. بعد وفاة والده سرجون أخذ مكان أبيه في إدارة أعمال الدولة، بينما انتقل أخوه قزما للعيش في دير القديس سابا في فلسطين. بعدما تسلّم الخليفة عمر الثاني (٧١٧ - ٧٢٠) مقاليد الحكم أصدر أمراً منع بموجبه المسيحيين من تسلّم مناصب رفيعة في الدولة ما لم يُسلموا، فترك يوحنا الوظيفة مفضلاً البقاء على إيمانه وانتقل إلى دير القديس سابا وعاش الحياة الرهبانية والنسكية. هناك تعمق في اللاهوت على يد البطريرك الأورشليمي يوحنا الرابع (٧٠٦ - ٧٣٤) الذي كان يطلبه لإلقاء المواعظ والخطب في أورشليم، واتخذ إسم يوحنا.

عندما قامت بدعة محاربة تكريم الأيقونات في القرن الثامن كان الإمبراطور لاون (٧١٧ - ٧٤١) من المناصرين لهذه البدعة، وقد انزعج كثيراً من كون الراهب يوحنا من المدافعين الكبار عن إكرام الأيقونة وقد وضع المؤلفات الكثيرة التي توضح أن السجود للأيقونة إنما هو مجرد تكريم للأشخاص التي تمثلها الأيقونات وليس عبادة للصور. عندها حاول لاون الإيقاع بيوحنا فأمر أحد الخطاطين أن يكتب رسالة، مزوراً خط يوحنا، يطلب فيها من الإمبراطور لاون أن يرسل جيشه إلى دمشق وهو يساعده على الخليفة هناك، ثم أرسل هذه الرسالة إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز مع رسالة شخصية منه يشي فيها بيوحنا. فما كان من الخليفة إلا أن استدعى يوحنا وأمر بقطع يده اليمنى. حاول يوحنا أن يوضح للخليفة أن في الأمر تزويراً لكنه لم يفلح ونُفذ الحكم، فألح على الخليفة أن يعطيه يده المقطوعة لكي يدفنها، فأخذها وارتمى أمام أيقونة والدة الإله وصلى بحرارة ونام. ظهرت له العذراء ليلاً قائلة: "هل إن يدك قد عوفيت الآن، فاجتهد أن تحقق ما وعدت به بدون تأخير". إستيقظ يوحنا ليجد يده صحيحة. إنذهل الخليفة عندما علم بالأمر وحاول إرجاعه إلى منصبه لكنه فضل الذهاب إلى دير القديس سابا بعدما وزع كل أمواله



+ آباؤنا القديسون

على الفقراء والمعوزين وانصرف إلى عبادة الله وحده. يذكر أن الفن البيزنطي ترك لنا أيقونة العذراء ذات الأيدي الثلاث تذكراً للأعجوبة المذكورة أعلاه.

بعدما لاحظ رئيس الدير رجاجة عقل يوحنا وبراعته في العلم أو كل أمره إلى راهب شيخ ليرشده إلى طريق الرب. طلب منه الشيخ أن يرفض المجد الفارغ وينسى علومه البشرية ولا يفتخر بها ولا يكتب أحداً ولا يتكلم مع أحد، وأن يلزم الصمت وأن لا يؤلف وأن لا يقدم على عمل دون موافقته وأن يتبع نصائحه. حفظ يوحنا إرشادات معلمه وطبقها بكل أمانة. حدث مرة أن معلمه أراد تجربته فأمره بالذهاب إلى دمشق لبيع القفف وذلك بضعف ثمنها المعتاد. أطاع وذهب إلى دمشق واحتمل سخرية الناس. رآه بعض خدمه القدماء فعرفوه ولم يعرفهم، إشتروا منه القفف وعاد إلى معلمه منتصراً على شيطان التكبر والعظمة.

وحدث مرة أن نظم ترنيمة نتيجة إلحاح أحد الرهبان المحزونين على فقد أخيه في الجسد، فعلم الشيخ وطرده. وبعدما توسل الرهبان إلى الشيخ لأجله، قال لهم: "أصغح عنه إذا نظف مراحيض الرهبان". وإذا علم يوحنا خسارته الروحية من جراء طرده أسرع ونظف كل المراحيض. فأيقن الشيخ أن يوحنا متعمق في فضيلة التواضع.

عندما أدرك الشيخ تواضع يوحنا ظهرت له العذراء في حلم تطلب منه أن يدع يوحنا يروي الكنيسة بأقواله وأنغامه الموسيقية، وأن يدعه يتاجر بوزناته. فابتدأ يوحنا يؤلف التراتيل والأناشيد الكنسية والطروباريات والقوانين، ووضع كتاب المعزي وهو كتاب الألحان الثمانية البيزنطية مع جميع التراتيل التي تترتل صباحاً ومساءً وأيام الآحاد. كما ساهم في وضع تيبكون دير القديس سابا.

توفي القديس يوحنا الدمشقي سنة ٧٤٩ بعد أن قضى أكثر من ثلاثين عاماً في دير القديس سابا ناسكاً ومؤلفاً ومدافعاً عن الإيمان القويم. دفن هناك وبقي قبره معروفاً لغاية القرن الثاني عشر، بعدها نقلت عظامه إلى القسطنطينية. فبشفاعة قديسك يا رب احنا وخلصنا آمين.